يدخل المحسنات البديعية فى شدة ففشل ، قد التزم مالا يلزم فأضاع مايلزم ، والمتنبي — على الجملة — اديب لفظ ومعنى قد وقع من معانى الحياة على ما لم يقع عليه من قبله ، ثم صاغه صياغة قوية حببته الى النفس .

وبعد فيظهر لى أن الزمن سائر الى تقويم المعاني أكثر من تقويم الالفاظ ، وشأن الناس فى تقويم الادب شأنهم فى تقويم الجمال في سائر الفنون ، فمن لم يصلوا الى درجة راقية من المدنية يعجبهم من الألوان اللون الزاهى ،كالاحمر القاني والاصفر الفاقع ، ويعجبهم من الأجسام السمين القوى فى ملامحه ، ومن الأصوات الطبل والمزمار ، فاذا بلغوا مبلغا كبيرا في الحضارة أعجبتهم الألوان المتناسقة والألوان الخفيفة ، كما تعجبهم وحدة الفكرة التى تنسق الألوان المختلفة والمظاهر المتعددة ، وأعجبهم من جمال الانسان الرشاقة وخفة الروح ، وأعجبوا بجمال الحركة ، وقوموا جمال المعاني أكثر مما يقومون جمال الملامح ، ونظروا الى جمال الروح أكثر مما ينظرون الى جمال الجسم ، حتى فى جمال الجسم يقومون وحدة التناسق والنسبة بين الأعضاء أكثر مما يقومون جمال الوجه وحده ، وفى الموسيقى تعجبهم النغمات الهادئة ، والنغمات المتناسقة ، والنغمات التي تمثل المعانى . كذلك شأنهم فى الادب يكرهون السجع الدائم ، والكتابة التي اختفت معانيها او ضاعت وراء الزينة المفرطة والزخرف الكثير ، والقافية الطويلة على وتيرة واحدة ، وتعجبهم البساطة في القول والزينة بقدر ، والالفاظ كوسيلة لا غاية ، يكرهون النكت كلها لعب بالالفاظ ، والنكت تلذغ لذعا صريحا ، وتعجبهم النكته أسست على معنى ، والنكتة تلذع فى ايماء ورقة .

ان الاديب اذا رزق حظوة فى السبك ، وأصيب بفقر فى المعنى كانت شهرته وقتية وقيمته محدودة الزمن ، ولا يلبث الناس أن يدركوا ضعفه وفقره فينبذوه ، والاديب الخالد من زاد في معارفنا ومشاعرنا بما فى قوله من معنى وقوة .

أديب اللفظ فارغ الرأس قليل العلم بماحوله ، قريب الغور ، قد ستر كل هذا بزخرف القول كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ ، رخصت بضاعته فبالغ فى التجمل فى عرضها ، ولفت الانظار اليها . وشعر أنها مزيفة فغضب لنقدها والتلويح بامتحانها . والأمة فى طفولتها وشيخوختها يعجبها هذا النوع من الادب ، لأن خفة رأسها من خفة رأس أدبائها . ولأن العقول السخيفة يعجبها السحر والشعوذة وألعاب البهلوان ، والأدب اللفظي المحض نوع من هذا اللعب .

نظرة في نظام بيعة الخلفاء

النحو الثانى

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

— ٢ —

هل استطاع التاريخ أن يصدر حكمه فى ثورة الفرنسيين ؟ إن هذه الثورة قريبة العهد ، فحوادثها قريبة الحدوث واكثرها مدون فى وقته ، مضبوط التواريخ وحكومة اليوم قائمة على تلك الثورة ، ومن اكبر الجرائم فى دولتها أن يعمل أحد على مس نظام الجمهورية الذى وضعته تلك الثورة ، ومع ذلك فانا نجد الافكار مقسمة مضطربة اذا تناولت ذكرها وحوادثها . فقوم من المؤرخين يتشيعون لها ويتغنون بكل ما كان فيها ، وقوم آخرون ينكرون عليها فعالها ، ويزورون من قاموا بها وآزروها .

وهل يستطيع العرب الا ان يكونوا كذلك ؟ فان ثورتهم فى مدة الخليفة عثمان لم تكن ثورة من كل الناس ، وان اشترك فيها كل العرب بالرأى والقول ، وتناولوها بين منكر ومنتصر . ولسنا بسبيل هؤلاء او أولئك ، ولكنا نرى أنها مثل الثورة الفرنسية ، ان اختلفت فيها الآراء فان الكتاب جميعا متفقون على انها كانت ظاهرة اجتماعية طبيعية . فلندع الخوض فى هل كانت تلك الثورة حقا ام كانت باطلا ، وحسبنا من القول أن يقال إنها كانت ثورة طبيعية ، وانها كانت خطوة فى سبيل بناء الدستور العربي . وهي وان لم يشترك فيها كل العرب قد كان فيها ممثلون للانحاء المختلفة من بلادهم ، فقد كان فيها جماعة من مصر وجماعة من مصري العراق ، كما اشترك فيها الاعراب من انحاء جزيرة العرب . وقد جمعت جماعة من الزعماء كما ضرب فيها العبيد بسهم فعدد الثائرين كان محدودا ، ولكن فكرة الثورة كانت ثائرة ،

فاذا نضج عقلها تغير ميزانها ونفذ نظرها الى أعماق الشيء ، لتعرف ماوراء الظواهر . واذ ذاك تقدر المعاني أكثر مما تقدر الألفاظ ، ترى الالفاظ جسما والمعنى روحه ، وترى المعنى غاية واللفظ وسيلة . ولتستحسن اللفظ لذاته ، ولكن لا لفقد المعنى .

وكانت رقعتها كذلك محدودة ، ولكن مدى الاشتراك فيها كان يشمل حدود الدولة العربية اذ ذاك . لسنا نقصد أن نقول ان العرب جميعا كانوا يريدون سفك دم الخليفة الشهيد ، فقد كان هـــذا أبعد شيء عنهم ، بل إن الفكرة ذاتها لم تكن في نفوسهم من أول الامر ، ولكن الثورة كانت في نفوس الجميع . وكانت ثورة طبيعية لا هي وليدة تدبير ولا هي بنت حادثة ، بل كانت نتيجة فكرة اختمرت في النفوس حتى صارت عقيدة ، ثم كان من الامر ما كان عن عقيدة .

كان انتخاب سيدنا عثمان كما سبق القول نتيجة اختيار واسع الرقعة وكان كذلك قائما على تعهد وبرنامج . ثم جرت حوادث على مر الايام لاحظها العرب واحصوها في نفوسهم ، واذا قلنا العرب فانما نقصد جميع العرب سواء في ذلك من كانوا في قلب الجزيرة والحجاز ومن كانوا في الامصار . وهل كان أهل الامصار يتركون الأمر يسير كما يشتهي فئة من قريش وهم جنود الدولة الذين يوفرون لها الفيء والاموال ، ويعودون عليها بالنصر والفتح . ولسنا في حاجة الى هذا التساؤل فحسبنا ان نتذكر أن اختيار عثمان كان قائما في ناحية منه على رضى جنود الامصار ، فاذا لاحظ هؤلاء الجنود كيف يذهب فيئهم في غير وجوهه انقلبوا ينتقدون رئيس الدولة الذي يسمح بمثل هذا ، واذا رأوا مشيختهم يُعزلون عن البلاد التي فتحوها لكي تسلم القيادة الى فتية لاغناء لهم ولا تحيط بهم ذكريات المجد والفتح احاطتها بالزعماء المعزولين نفرت نفوسهم وطفقوا يحصون على الوالي الجديد اعماله ويسيئون تأويلها أو يزيدون تأويلها قبحا . ومنذ بلغ الحال هذا المدى بدأ النقد يتخذ شكل الشكوى . ونطقت الالسنة بما دار في النفوس من التهم .

ولسنا نقصد أن نذكر الحوادث او نسرد ما كان من الخطوات التي ادت الى الثورة ، فذلك معروف متداول ، ولكننا نذكر امرين لاغني عنهما : الامر الاول ان رؤساء العرب في المدينة اقتنعوا اقتناعا كبيرا بحق الشاكين ووجوب ازالة ما يشكون منه وبدأت نفوسهم تنحرف عن عثمان عندما رأوه لا يبدي الجد في احقاق الحق وكان جديرا به أن يكون عند الحق مقيدا . والامر الثاني ان الذين كانوا ياتون للشكوى لم يكونوا من أهل الفساد والعبث بل كانوا رجالات من الزعماء أتوا وقلوبهم موغرة تملؤها الشكوى ، وما كانوا يقصدون سوى أن تزال مواطن تلك الشكوى بعد ان بثوها مرارا . وما كانوا مدفوعين الا بعامل واحد وهو الاصلاح . وكان ابعد شيء عنهم أن يفكروا في قتل الخليفة ، و يثيروا بذلك المشكلات والعداوات أو أن ينقضوا بناء الدولة الذي كان لهم الفضل في بنائه فضلا عن انهم من جنود الدولة الحريصين على الدفاع عنها وبسط سلطانها .

واذا كان لا بد من ضرب المثل للتدليل على صدق مذهبنا في هذين الأمرين فانا نذكر القراء بما كان من عبد الرحمن بن عوف وهو كما نعلم صاحب اليد في اختيار عثمان . فانه غير متهم اذا هو قام يذكر عثمان بما وجب عليه . ولقد بلغ به الأمر أن خاصم عثمان وحلف ألا يكلمه بكلمة حتى يفرق بينهما الموت ، وقد بر بقسمه فقد قال إنه لما حضرته الوفاة دخل عليه عثمان عائدا فأدار وجهه الى الحائط ولم يكلمه . وذلك موقف كان يدعو الى ترك الخلاف لو لم يكن الأمر قد بلغ حدا لا يرتاح الضمير الى التساهل فيه واذا شئنا أن نكرر الأمثلة التي تدل على انحراف زعماء الصحابة عن عثمان في آخر الأمر لم نضق بالأمر فقد غضب طلحة - وكان فيمن يحرض على عثمان تحريضا شديدا ، وغضب عمار بن ياسر وبلغ الأمر بابي ذر الغفاري أن نفي من المدينة ، وكان علي في أشد المواقف ، ولكنه لم يكن راضيا وإن لم يظهر شيئا من غضبه باكثر من كلمات قالها لعثمان أو لبعض أهله . ولقد كان علي في أشد المواقف فانه كان في حيرة بين واجبه نحو صديق آخي بينهما رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وبين واجبه نحو العدل وهو بقية العهد الأول من عهود الاسلام ، وهو البطل الذي ما كان يرضى بالحيد عن العدل مهما كان في سبيل ذلك من الاخطار . على أنه كان مع ذلك يحاول أن يحمل الخليفة على الاصلاح لكي يتحاشى النكبة التي لاحت في الأفق

وأما الامر الثاني وهو حسن نية الثوار فليس ادل عليه من انهم لم يرضوا بترك الأمر فوضى بعد قتل الخليفة ، بل كانوا يعرضون الامر على الزعماء . ويظهرون لهم وضوح حجتهم في ثورتهم ، ولم يفكر احدهم في أن يذهب الى مصره ليضرم فيه النار ، أو ان يهرب الى بلده قبل ان يستقر الامر و يتدارك ما كان من الخطب ، فلم يكونوا بالمجرمين الذين متى تمت جريمتهم فزعوا هاربين من ضوء الشمس يحاولون أن يدخلوا في غمار الناس حتى لا تنالهم معرة فعلهم . فكانوا أشبه الناس باصحاب يوليوس قيصر عند ماقتلوه وقاموا بين الناس معترفين بما أتوه ، وبانهم انما فعلوا فعلتهم دفاعا عن الحق والحرية .

قتل الخليفة ولكن قتله كان غير مدبر تدبيرا محكما نتيجة تفكير طويل ، بل جاء عند ما فزع الثوار اذ بلغهم ان الجيوش الموالية له تتحرك نحوهم لتبطش بهم من انحاء الامصار . وقد ذهب الخليفة ضحية الظروف القاسية التي كانت تخيم على دولة العرب والتي كانت

تحتاج الى رجل له عقلية غير عقلية عثمان . عقلية محضة لا تردد فيها بين العواطف المختلفة ، ولا تنازع فيها بين جانبي العدل والميل الطائفي ، فامالان تكون عقلية دنيوية محضه تسير على الميل الطائفي والاثرة ولكنها تسير قدما بغير تردد ، واما أن تكون عقلية عادلة محضة تسير مع العدل قدما بلا تردد ، واما عثمان فقد كان قلبه مملوءا بفكرة العدل ، ولكنه كان لين العاطفة يصل قرابته ، ولا يستطيع الا أن يكون مائلا نحو من لهم به مساس من رحم . فتردد بين الدافعين المتضادين ، وكانت الكارثة من وراء هذا التردد

ولما تم الامر عاد الثوار الي أنفسهم وكانهم يريدون انقاذ الموقف فقضوا أسبوعا يبررون فعلهم ، ويعرضون الخلافة على الزعماء . وقد أرادوا ألا يبعدوا عن السنن التي اختطها السلف والايحيدوا عما سار عليه العرب في بناء دستورهم منذ كانت دولتهم، فرأوا أن يرجعوا الى آخر خطوة من خطى ذلك الدستور قبل الثورة ، الا وهى خطوة الشوري . ولم يكن الوقت ليسمح لهم بالسير بعد ذلك خطوة أخرى جديدة فى سبيل تقدم ذلك الدستور وهي الخطوة التي كانت تنتظر لبلوغ نظام كفيل بتمثيل العرب واختيار اليقهم للخلافة اذ ان ذلك كان يستلزم الهدوء والاستقرار . فلما لم يستطيعوا السير الى الامام عادوا الى حيث كانوا ورجعوا الى المرشحين للخلافه بعد مقتل عمر . وكان بعضهم قد لحق بربه مثل عبد الرحمن ابن عوف وكان بعضهم بعيدا عن المدينة ، وهو الزبير . فعرضوا الخلافة على طلحة فأبي وكره ان يتقدم فى مثل هذا الظرف خوفا من التهمة ، اذ كان ممن ظهر منهم التحريض الصريح على عثمان ، واما سعد بن أبي وقاص فقد كان أخرج نفسه منها منذ حادثة الشورى وأبى أن يعاود نفسه فى ذلك الامر ، فلم يبق من المرشحين للخلافة من أهل الشورى الا علي . وقد عرض الثوار الخلافة عليه فلم يرض بادىء الأمر ، وابى كل الاباء . ان يقبلها .

وكان على عند مقتل عمر أول المرشحين للخلافة ، ولولا أنه أبى أن يقيد نفسه بغير كتاب الله وسنة نبيه ، ورفض أن يحرم نفسه الاجتهاد على هذين الأساسين فيما يقابله من مسائل الدولة لكان هو الخليفة بعد عمر . ولما رأى الثوار أن كل اهل الشورى لايواتونهم فيما يطلبون عادوا الى علي وغيروا لهجة عرضهم وخاطبوه بما وجد فى قلبه موقعاً . وذلك أنهم بدأوا يظهرون له حال الدولة الاسلامية ، وقد مضى عليها اسبوع بغير خليفة ، وحدودها ممدودة الى اعداء كثيرين . واذا استطال الأمر بها لم يؤمن عليها من الضياع والانفراط . وهل كان علي يترك دولة الاسلام فى مثل هذا المأزق ويتردد فى قبول حمله والاضطلاع به ؟ لقد كانت المشكلات واضحة لكل ذي عينين ، وكان كل من عرضت عليهم الخلافة يرفضونها ، وهم يخشون ما وراء قبولها من العقبات والأخطار والمتاعب . فلم يكن الأمر أمر خلافة وسلطة وسيادة بل كان الأمر امر شقاق ، وكان على الخليفة ان يحاول القضاء عليه ، وأمر دولة تريد أن تنهار ويجب الاحتفاظ بها وحفظها من الضياع ، وأمر شهوات وأغراض يريد اصحابها ان يصلوا اليها متسترين بالثأر ، والواجب حماية المجتمع والدولة الاسلامية منها . وقد كان علي من بناة الدولة وأول ابطالها الذين تعرضوا للموت مراراً فى سبيل بنائها ، فلما ان جاءه الثوار من ناحية ما يحيط بها من الاخطار ثار قلبه ونسى كل ما يمكن أن يلقى فى سبيل الدفاع عنها ، وقبل مايعرضه الثوار ، وكان عن الخلافة راغباً . وقال عند ذلك كلمته القصيرة الكبيرة الدلالة : «قد أجبتكم لما أرى ، واعلموا اني ان أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فانما أنا كأحدكم ، الا اني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم» .

على ان هذه الثورة وإن كانت في مظهرها هدماً قد كانت في الحقيقة بناء له خطر عظيم فى دستور الدولة العربية . فقد أظهر العرب بعد ان الخليفة اذا قبل شرط المبايعة كان لزاماً عليه أن يفى بما تعهد به ، وانه ان لم يفعل كان للشعب ان يعزله . فان أبى ان يعتزل او يعتدل كان للشعب أن يثور عليه . واذن كان على الخليفة الذي يلي امر العرب بعد ذلك أن يحتاط ويحترس فى السير على منهاجه الذى بايع عليه . وبذلك تم بناء الدستور العربي الأول على أسس واضحة صريحة ، فقد كان اختيار الخليفة فى ذلك الدستور من حق العرب جميعاً ، ولكن السنة التى سار عليها خلفاء العرب الأوائل جعلت اختيار الخليفة محصوراً ، فما كان الخليفة ليختار الا من قريش . وكان الخليفة يختار ممن تتوافر فيهم شروط الرجولة التامة والعدل الذي لايعرف ميلا ، وكان أساس الاختيار أن يعمل الخليفة بمقتضى برنامج صريح قائم على أحكام الكتاب والسنة والاستنارة بسنن الخلفاء الماضين . وكانت المبايعة من جانبين : جانب الشعب ، وجانب الخليفة ، فاذا خالف الخليفة شروط المبايعة كان للشعب أن ينقده ويطلب اليه الرجوع الى المنهاج القويم وإلا كان له ان يثور عليه . ولم يقف نمو هذا الدستور بعد ذلك لنقص فى القوة الحيوية فى الشعب العربي . بل قد تكلف خلفاء بني امية وبنى مروان شيئاً كثيراً من العناء وارتكبوا جرائم كثيرة وخاضوا الحروب والمخاطر قبل أن يستطيعوا أن ينقضوا أسس ذلك الدستور ؟

(تصحيح) ذكر فى المقال الاول الذى نشر فى العدد الماضي اسم مسلمة بن مخلد سهوا والصواب أبو طلحة الانصارى